المازنى فى عهدين

بين ابراهيم الكاتب وابراهيم الثانى

للأستاذ غائب طعمة فرمان

وصف المازنى ابراهيم الكاتب بقوله :

« إن أبرز مزاياه كانت أن أسلوبه صورة لنفسه الحية الحساسة المتوقدة ... وكان دأبه أن يدور بعينه فى قصه ليطلع على كل ما فيها ، وأن يجيلها فيما هو خارج عنها ليحيط بكل ما وراءها ... ولكن قلما رأى شيئاً خارجها إلا من خلالها ... »

... ومن خلال هذا الوصف أعطانا المازنى صورة واضحة المعالم دقيقة السمات لنفسه ... تلك التى ترى الأشياء من مرآتها الملامسة وتبث من خلجاتها حياة فيها ...

والمازنى لا يفتأ يتحدث من نفسه ، وينفذ إلى أعمق أعماقها ، ويسبر أغور أغوارها ، ويطلع على أخفى خفاياها ... ثم يرى العالم من خلالها ليتعرف على أسرارها !

فإذا بتلك السلسلة المتصلة الحلقات من التجارب الإنسانية تصبح مادة أدبه ، وإذا بذلك النهر المتجمع من قطرات أيامه وسنيه يمد المازنى بمعين لا ينضب من الأدب الرفيع .

وتحت معاول الهزات النفسية ، والجنبة فى رحلاته الطويلة فى عالم الفكر والشعور ترتبت نفسه ، وتهذبت ، وامحى بريقها الكاذب وبدت خالصة من الشوائب ، ناصعة الجوهر ... فإذا هو يعتز بها ، ويحيا لها ، وفى سبيلها يسعى ، وبها وحدها يعنى .

فإذا أسلمنا بهذا حملنا إلى الشك فى قول المازنى بأنه « ليس ابراهيم الكاتب الذى تصفه الرواية ؛ وإن هذا المخلوق ما كان قط ، ولا فتح عينيه على الحياة إلا فى روايته » تلك مغالطة أعظم بها من مغالطة ، وتنكب عن واقع الحياة ، وهروب من لذعات السنين الماضية ، وذكرياتها المريرة التى قد تكون شديدة الوطأ على نفسه ، قاسية الوقع على شعوره ... وما تلك الفروق بين ابراهيم المازنى وابراهيم الكاتب إلا ضرب من المخادعة واللف يلجأ إليه المازنى فى كثير من الأحايين .

وقد تغير المازنى السنون فيبدو لعينيه ابراهيم الكاتب – وهو يمثل طوراً من أطوار حياته — رجلاً غريباً « لا تعجبه سيرته ولا مزاجه ولا التفاتات ذهنه » . فينفر منه ، ويجفوه لاختلافه فى الاحتفال بالحياة والأعراض عن الدنيا ، والوعورة فى الأخلاق والنفور من الناس ، والمرارة من الواقع الأليم ، والرضى بما هو كائن ...

فالمازنى الشاب بنزوات قلبه ، وخفقات روحه ، وتسابيح خياله ، وانسراح عواطفه قد مضى ... وخلف ذكريات مرة مسجلة على صفحات « ابراهيم الكاتب » .

ولست أدرى كيف استساغ المازنى أن ينفى كونه ابراهيم الكاتب بعد أن قال فى الصفحة الأولى من المقدمة :

بدأت هذه الرواية فى سنة ١٩٢٥ ثم عدلت من إتمامها ، والمضى فيها وبها إلى غايتها ونسيتها إلى شتاء ١٩٢٦ فاتفق فى ذلك الوقت أن عرفت سيدة نمسوية تزاول الصحافة والتعليم فى آن معاً ، وتوثقت بيننا الصداقة على الأيام – فقد طال مقامها هنا – فأطلعتنى على صفحة من حياتها حافلة بالكروب والمتاعب ، ولما كنت لا أعرف لى ، مع الأسف ، تاريخاً يستحق الذكر ، أو حياة جديرة بأن يصغى إليها ، أو يطلع عليها السامع أو القارىء ، ولما كنت معها فى موقف يتقاضانى أن أجازيها بثا بيث ، وأن أقول لها بشجوى ، كما قالت لى بشجوها ، فقد ركبنى عفريتى الذى استراح إلى كتفى ، واطمأن إلى استسلامى لقضاء الله فىّ معه فقصصت عليها حكاية الرواية — كما كنت أنوى أن أكتبها — وزعمت أن هذه قصة حياتى !!! ولما كانت حياتى مضمرة فقد إحتجت وأنا أسرد عليها هذا التاريخ المتدع أن أجعل الختام باباً مفتوحاً »

« أمى ... أمى ! » فطفرت من عينه عبرة حرّى لأنه أحس — فى يوم ما — أن فقد الأم يحز القلب وخزات جاسية غليظة ، ولأنه استشعر لذع الخيانة يسم حياته بسمات الخزى والمهانة ، ويسربل أولاده بلباس السبة والعار .

آه ، يا لقلبى ! إن الزوجة حين تتدع فى حمأة الخيانة تعلن عن أن حسها لم يشعر يوماً بالمعانى السامية والشرف والكرامة .

كامل محمود حبيب

... ثم وصف المازنى لابراهيم الكاتب وصفاً لا أظن الذين راوا المازنى رأى العين يفوتهم هذا التشابه الجسمى بين ابراهيم الكاتب وابراهيم المازنى ...

كل هذا يدفعنا إلى أن نقر بأن المازنى قد سجل فى ابراهيم الكاتب عهداً من عهود حياته ، عهداً مليئاً بالهزات النفسية ، عهداً بذر بذور التشاؤم فى نفسه ، وأسلمه إلى شيء يشبه القنوط ، عهداً لم يخل من أخطاء ونزوات وزلات وهفوات ، حتى اضطره آخر الأمر إلى أن يتنكر ذلك الرجل الذى يهرب من العقل ، ويغور فى كهوف العاطفة ، ويهوم فى مساربها العميقة .

و « ابراهيم الكاتب » قصة رحلة ، تبدأ بإخفاق ، وتنتهى بإخفاق .. ويظل القلب الذى شهد فصولها يتألم من الحاضر ، ويتعذب بالماضى الدفين .

وتبدأ هذه الرحلة حين يذهب ابراهيم إلى الريف ، بعد موت زوجته ، وخروجه من المستشفى وهو مجروح القلب ، يعذبه حب مارى ... يذهب إلى الريف ليسلو ، وليقضى وقتاً فى أحضان السكون ، وصوامع الطبيعة الريفية الهادئة ، بعيداً عن ضوضاء المدينة ووساوس الحب وآلامه .. ولكنه لم يدر أن القدر يترصده ؛ فيقع فى حب ثان أعنف وأشد ... هو حب شوشو بنت خالته ، تلك الفتاة الغريرة بنت السابعة عشرة ، وذات العينين العميقتين السوداوين المعبرتين عن طبيعة صاحبتها ، والمفصحتين عن حقيقة جمالها ، الحلوة النفس ، الخفيفة الروح ، الظامئ إلى المجهول .

ولكن المرارة دائماً تفعم قلب المازنى ، واليأس يصحبه ، والإخفاق يطارده ؛ فالحب الذى اضطرمت ناره فى صدر العاشقين ، وجريا معه فى مجاريه يتحطم على أعتاب تلك القوة الناشئة ... قوة التقاليد ... فيسافر ابراهيم إلى الأقصر ليدفن هواه الجريح ، ويواسى قلبه المضطرب ، وليتسلى عما أصابه من إخفاق .

وكأن القدر يلذ له أن يحرك الآثار المرهفة من قلب ابراهيم ، فهناك يلاقى فتاة مصرية تدعى (ليلى) .. وسرعان ما يختلج فى فؤاده لهيب العاطفة التى تعذب بها ، وصلى نارها ، فينجرف فى تيارها إلى الشاطئ ذى الأشواك .. شاطئ الحب الصارم ، فيوغل فى حب ليلى ، ويندفع معها إلى جنائن الفاكهة المحرمة ! .

ولكن ذلك الشيطان الظالم — الإخفاق — دائماً يظلله بأجنحته السوداء ، فيصاب بالمرض ، أغلب الظن أنه أورثه تلف الأعصاب ، وخلق منه ابراهيم الكاتب .

وبعد تلك الرحلة الفنية يسلم نفسه إلى كآبة عميقة ، ويأس مرير — وفى خلال صفحات الكتاب نرى نفسه الحساسة المرهفة كيف تتعذب ، وكيف تشقى بإحساسها — فالحياة لم تنر لها الطريق ، ولم تهدها إلى نعم الاستقرار ، فظلت هائمة لا يثوب إليها الاستقرار ، ولا تركن زورقها الحائر إلى شاطئ الهدوء .

فلا غرابة — إن اتجه ابراهيم الكاتب إلى التشاؤم بعد هول العاصفة ، يلوذ بكهوفه ، يرضى فيه نفسه الجريحة ، ويحاول أن يحسب الألم عنصراً من عناصر الحياة :

« اسمعى يا نونو — لقد أهاب بنا نتشه أن نحيا حياة خطرة — ولكنى أقول إنه ينبغى أن نحيا حياة مؤلمة ! . إن الألم لا سخيف ولا بشع — انظرى هذه الشمس التى تنحدر للمغيب — إن للشمس بقعها ، والشمس على رغم من بقعها هى حياة الأرض — هى وحدها الحياة — والسعادة أيضاً لها بقعها ... ولك أن تسميها آلاماً ... ولكن هذه الآلام هى التى تجعلنا نقدر السعادة التى نفوز بها ، والحياة بالقلب هى الحياة الثامنة ، أما من يبلد قلبه ؛ من يخنقه فهذا إنما يحيا حياة هندسية فى ناحية واحدة » .

هذا الشاب المتوقد كم عذبه إحساسه ، وشقى بعاطفته ! فكان يحس فى قرارة نفسه بعد أن أنهى آماله ، وتحطمت أحلامه — أنه يحسن به أن يستقر ، ويهدأ ويلقى جسمه المنكود للتعب ، ونفسه المنهوكة المثقلة بأعباء الحياة فى ركن يسكن به .. فى بيت يربطه الرباط المقدس ، وتظلله ظلال وارفة من التآلف والحنان .. ولكن أنى له ذلك ؟! ألم يحاول أن يتزوج من ميمى الفتاة التى أحبها ، وأحبته واستغرق الإثنان فى حبهما ، حتى إذا أشرف على الزواج وقف ذلك الجدار المرتفع من التقاليد . حائلاً دونه ودون ما يصبو إليه .

وليلى ؟ . . الفتاة الظريفة الحركة الحلوة التعبير ، الناضجة الجسم ، السمراء اللون ، الدائمة التفكير ... لقد هام بها فجاء إليها مرة قائلاً « .. إن هذه اللحظة رهيبة فى حياتى فهل توافقين على الزواج منى ؟ ... » فتجيبه « يا حبيبى المسكين أجننت ؟! » .

وفى هذه اللحظة الرهيبة تتبين له حقيقة ليلى ، وتتكشف له

سطوراً من صفحات ماضيها القاتم ، وتزرع في قلبه المفتون أشواكاً ، وتذر في عينيه حفنة من رماد !

ويتحطم كل أمل له في البيت المنشود ، ويظل الاستقرار بعيداً عنه ، نفوراً منه ، ويظل قلبه المرهف يتجرع الصاب في صمت !. وينظر إلى سجل أيامه الماضية من بعيد وهي متوارية خلف آفاق الماضي ، والدموع تملأ قلبه ، والغصة في حلقه .

وذات مرة تسائله أمه :

— يا بني ألم تفكر في الاستقرار ؟

— الاستقرار ؟! . . إن البيوت الثابتة إنما اخترعت لأن الإنسان اشتهى السلامة وطلب الأمن ، وأراد أن يكون مطمئناً إلى ما يتوقع . . فإن الخيال لمتة . . والحياة تظل تجربة حتى يكون للانسان بيت ويشعر بأنه له ، ويصبح هو ملكاً لهذا البيت ، مشدوداً إليه ، مقيداً به ، والناس في العادة يرتاحون إلى هذا الشعور ، ويحبون أن يكونوا على يقين من أن هناك وسادة يضعون عليها رؤوسهم كل ليلة ، وأن هناك امرأة يسمونها الزوجة ترقد إلى جانبهم . . ثم فإن الإنسان إنما يطلب البيت لأنه يطلب الزوجة ، وهو يطلب الزوجة لأنه يريد أن يريح نفسه من متاعب الإحساس الجنسي !! كأنما هو يريد أن يفرغ من الأمر مرة واحدة وفي لحظة واحدة . . هذا هو الاستقرار . . وليس فيه ما يخدم الآداب والفنون أو يساعد على التقدم .

وهكذا يخلص ابراهيم الكاتب إلى هذه الفلسفة يحاول فيها أن يقنع نفسه ويرضيها بالتعلات ، ويسوغ إخفاقه بأشياء لا يرضاها إلا القلب الكسير !

فلا جناح أن يتجه المازني في ذلك الدور المضطرب ، إلى الكآبة يغرق في لججها ، وإلى التشاؤم يتسلل في قناعته ، وإلى الألم يستسيغه ، ويستمرئ مره ، وإلى اليأس من كل شيء .

ويخيل إليه « أن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة بإخلاص إلا بعين يمتزج بها التشاؤم والتسامح ، وأن الدنيا حافلة بالسوء والقبائح ، وأن الحياة فيها — أقوى فنونها — التثبيط ، وأن الإنسان يعيش سنين وسنين ويتصل بمن لا يحصى عددهم من الناس ، ولكن ما أقل الوافق منهم ! . . وأن خاتمة كل حياة الأسف والندم . . وهنا جبل ينمو معنا طالعاً من أقدامنا ، وقلما نعرف اسمه في صبانا ، وما أكثر ما نترجمه جبلاً رائعاً جليلاً . . وإنه لرائع وجليل . . ولكنه مخيب للأمل . . ويعلو الجبل أمامنا ويتضخم ونحن نصعد فرحين بالحياة ، مغتبطين بالعيش ، ثم لا تلبث على الأيام أن تتمهل وندير عيوننا ، وترجع البصر فيما خلفنا ووراءنا ، فتأخذ عيوننا شقوق الفضائح وفدافد اليأس ، وأودية السقوط . . ومع ذلك نظل نصعد في جبل الندامة ، وماذا عسانا نصنع غير ذلك ؟ ويجيء يوم نهرم فيه ، وتكل أرجلنا ، وتجف أنسجتنا ، ونعيا بالاصعاد ، فنقعد على قنة مريحة ، وتنظر إلى جداول الحياة المنحدرة . . الحياة التي تظل تترقرق ، ويظل واديها خصيباً ، وإن أخفقنا نحن ، ونشفنا واحداً بعد واحد فتتملى بذكرياتنا ، وتبدو لنا هذه الذكريات أجل وأسمى من الحوادث التي ولدتها ! » .

هذه الصورة الرمزية القاتمة الدقيقة التي رسمها المازني ليمثل فيها أدوار الحياة الإنسانية تمثيلاً يحمل إلى النفس كثيراً من الأسى والحسرة . . هي خلاصة فلسفة ابراهيم الكاتب بعد أن ألقى رحاله في أحضان اليأس ، والإخفاق ، يحسب أنه معذور إذا بكى إساره ، وحاول أن يتلهى بسجنه . . وبدت له الصور القاتمة في مخيلته ، صور الذكريات الحلوة المرة ، الباسمة القاتمة « أجل وأسمى من الحوادث التي ولدتها » في نظر اليائس على الأقل !

وإلا فماذا كسب من الذكرى ؟

أحب ماري ثم أراد القدر أن يسخر بمتعلق الحب ، فافترق منها . . ولكن ذكرياته معها ظلت حية تعمر مخيلته ، وصحبته إلى الريف موطن العزاء والسلوان . . حتى إذا أحب توتو بقيت ذكرياته تملأ قلبه مرارة . . ثم تحول حبه إلى توتو قبضة من إخفاق . . وبعضاً من ذكريات كانت تعذبه وهو غارق إلى أذنيه في حب ليلى ! .

ومع ذلك فهو يحسب الذكريات « أجل وأسمى من الحوادث التي ولدتها » .

(البقية في العدد القادم)

غائب طعمة فرمان